دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النجاة في ضوء القرآن الكريم : دراسة موضوعية
المؤلف الرئيسي:	الجربوع، عبد العزيز بن محمد عبد الرحمن
مؤلفين آخرين:	العيدي، محمد بن عبد االله بن محمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2012
موقع:	بريدة
الصفحات:	1 - 877
رقم MD:	613050
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة القصيم
الكلية:	كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدولة:	السعودية
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم، النجاة، التفسير الموضوعي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/613050

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الرابع: موانع النجاة

(وفيه تمهيد وثلاثة مباحث):

التمهيد: بيان المراد بموانع النجاة.

المبحث الأول: الشرك والكفر.

المبحث الثاني: المخالفات الشرعية.

المبحث الثالث: أمراض القلوب.

التمهيد: بيان المراد بموانع النجاة

لا يمكن أن تتحقق النجاة لأمة لاحقة؛ وهي تفعل نفس الفعل الذي أُهْلِكت بسببه أمة سابقة، وذلك لأن سنة الله لا تتبدل ولا تتغير؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦٢، وقال سبحانه: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ فاطر: ٤٣؛ ومعنى ذلك أن الله لا يبدل سنته بل يجريها مجرى واحدا في الأمم(١)، فما كان موجب لهلاك أمة سابقة فهو موجبٌ للهلاك في كل عصر، وفعلهم نفس فعل من سبقهم مانعٌ من نجاتهم.

ونجد أن القرآن الكريم ينص عند ذكر عطب قومٍ أو إهلاكهم على سبب ذلك، ليكون اللاحق على حذر مما حلَّ بالسابق، فيأخذ العبرة من ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٧؛ والأنبياء كانوا يذكِّرون أقوامهم بما حل بغيرهم؛ كما ذكر الله عن شعيب-عليه السلام- ذلك في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف: ٨٦، وأمر الله موسى-عليه السلام- أن يذكّر قومه بأيام الله؛ فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إبراهيم: ٥؛ وأمر الله تعالى كل الناس بالاعتبار فقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ النمل: ٦٩؛ وعاب الله من لا يعتبر بما جرى للسالفين؛ فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يوسف: ١٠٩؛ ونصَّ الله على أن ما جرى للسابق سيجري للاحق فقال: ﴿ أَفَلَمْ

(١) انظر: البحر المديد٦/٥٤، والتحرير والتنوير٢١/ ٣٣٣.

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ محمد: ١٠.

فالقرآن قد بيّن -بوضوح تام- أن ما أوجب عطب المهلَكين السابقين، موجب لعطب اللاحقين. وقد ذكر الله في كتابه من تلك الموجبات أموراً متعددة. وهذه الأمور الموجبة للهلاك، هي التي سيتم تناولها في هذا الفصل باسم- موانع النجاة-، لأن كل ما أوجب هلاكاً فإنه يمنع النجاة- وسيتبين لك ذلك عند الدراسة بمشيئة الله-.

المبحث الأول: الشرك والكفر

(وأتناول فيه ما يلي):

١. الشرك.

٢. الكفر.

١ـ الشرك:

الشرك لغة؛ مصدر: أشرك يُشْرِك شركاً. وكثيرون لا يفرقون بين:يُشْرِك، ويَشرَك، وبينهما فرق عظيم؛ فالأول؛ (بالضم)؛ هو جعل شريك لله، والثاني؛(بفتح الياء والراء)؛ من الفعل: شرَكَه يَشْركه مشاركة؛ أي: صار شريكه[١].

والشرك اصطلاحاً؛ اسم شرعي[٢] لاتخاذ إلهٍ سوى الله، سواء كان معه اعتراف بألوهية الله، أم لا[٣]، وقيل: هو"إيجاد إلهية مع الله أو دون الله"[٤]، والمعنى واحدٌ.

ثم هو معتبرٌ بوجود حقيقته ومعناه، لا اسمه ولفظه؛ فمن وُجدت فيه حقيقة الشرك فهو مشركٌ، وإن لم يُسَمِ فعله شركاً[٥].

والشرك الأكبر المخرج من الملة بأقسامه المتعددة[٦] مانعٌ من نجاة الفرد أو الأمة التي تتصف به، كما بيّن ذلك القرآن، فقد أوضح ربنا سبحانه أن الشرك كان موجباً لهلاك أفرادٍ وأممٍ في آياتٍ كثيرة؛ ومنها قوله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الروم: ٤٢؛ قال مقاتل: {كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ }؛ فكان

---

(١) انظر: درة الغواص؛ مادة(نشد).

(٢) الفروق لأبي هلال العسكري١/٤٥٥.

(٣) انظر: درء التعارض لابن تيمية٥/١٦٩،

(٤) الفروق لأبي هلال العسكري١/٤٥٥.

(٥) قال ابن القيم:" الشرك والكفر؛ شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه؛ فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له؛ هذا خضوع، أو هذا إكرام؛ لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودا لغير الله؛ فليسمه بما شاء. وكذلك من ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب؛ فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة؛ بل يسميه استخداما! وصدق! هو استخدام من الشيطان له؛ فقد صار بفعله من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به[انظر:بدائع الفوائد٢/ ٤٦١].

(٦) أصول أقسام الشرك الأكبر أربعة أنواع: شرك الدعوة؛ وهو دعاء غير الله. وشرك الطاعة؛ وهو طاعة غير الله في معصية الله. وشرك النية والإرادة والقصد؛ بأن يقصد غير الله في عبادته. وشرك المحبة؛ بأن يحب غير الله محبة تأليه وتقديس وتعظيم.[انظر:الدرر السنية في الكتب النجدية٢/٧٠].

عاقبتهم الهلاك في الدنيا"[١]، وقوله:{فَٱنظُرُواْ }؛ قال السمرقندي:"النظر على وجهين: يقال نظر إليه؛ إذا نظر بعينه، ونظر فيه؛ إذا تفكر بقلبه؛ وههنا قال:{فَٱنظُرُواْ }؛ ولم يقل فيه، ولا إليه؛ فهو على الأمرين جميعا"[٢]، وقوله:{ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ }"المعنى: فأهلكوا بشركهم"[٣]، فالأكثر الإهلاك بالشرك، وإن كان أحياناً يحصل بمخالفات أخرى غير الشرك[٤]، أو أن المراد بقوله{أَكْثَرُهُم} أن العذاب إذا نزل بسبب شرك الأكثر، عم الصغار والمجانين ممن لا يطلق عليهم اسم الشرك الشرعي[٥]، وعلى كلٍ فالمطلوب في الآية معرفة أن موجب إهلاك المذكورين هو شركهم، فشركهم كان موجب إهلاكهم في الدنيا، وهو الذي بسببه امتنعت نجاتهم، وما حدث لأولئك بهذا السبب سيحدث لمن عداهم[٦].

أما في الآخرة؛ فقد بينت آيات أخرى امتناع نجاة المشركين؛ ومن ذلك قول الله تعالى-عن أهل النار-:﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ غافر: ١١ – ١٢؛ قال الطبري:" يقول: فهل إلى خروج من النار لنا سبيل"[٧]، فهم هنا استعملوا الاستفهام للمبالغة في الاستعطاف للنجاة من النار[٨]؛ لكن ذلك لن يحصل لهم؛ والسبب بينه الله تعالى في قوله:{ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ }؛ فعِلَّةُ امتناع النجاة في حقهم هو شركهم، قال ابن عاشور:"عدل عن جوابهم بالحرمان

---

(١) تفسير مقاتل٣/١٤.

(٢) بحر العلوم٣/١٥.

(٣) زاد المسير٦/٣٠٦.

(٤) انظر: الكشاف٣/٤٨٣.

(٥) انظر:مفاتيح الغيب٢٥/١١٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري٢٠/١١٠.

(٧) تفسير الطبري٢١/٣٦١.

(٨) انظر: التحرير والتنوير٢٤/١٦٠.

من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب"[١]، وقال الشوكاني:"بين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار؛ وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء"[٢]. وقوله:{فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ }؛ قال أبو السعود: أي:فهو"يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته؛ كما لا نهاية لشناعته؛ فلا سبيل لكم إلى الخروج أبدا"[٣]. وقد أخبر الله تعالى أن عيسى-عليه السلام- أخبر بني إسرائيل أن المشرك قد حُرِّمت عليه الجنة، وأن مأواه النار خالداً فيها، وأنه لا نجاة له من ذلك المصير، ولا أحد يستطيع إنقاذه؛ وذلك في قوله سبحانه:﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ المائدة: ٧٢؛ قال ابن كثير:هذا إخبار من الله تعالى عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل:{إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار}؛ أي: "وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه"[٤].

ومن مات على الشرك- لم يتب منه- فعطبه محقق دائماً، لا يغفر الله له ذلك أبداً، لأن الشرك لا يُغْفَر إلا بالتوبة ما دام زمنها قائماً؛ كما بيّن الله ذلك في كتابه، فقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٤٨؛ وقال:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ النساء: ١١٦؛ قال ابن عباس:"حرّم الله تعالى المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته"[٥]، وقال الطبري:"كل من اجترم جُرْمًا، فإلى الله أمره، إلا أن يكون جرمه شركًا بالله وكفرًا، فإنه ممن حَتْمٌ عليه أنه من أهل النار إذا مات

---

(١) المرجع السابق٢٤/١٦١.

(٢) فتح القدير٤/٦٨٩.

(٣) تفسير أبي السعود٧/٢٧٠.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير٣/١٥٧.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره٨/١٠١، وابن المنذر في تفسيره٢/٦٠٧، وابن أبي حاتم في تفسيره٢/٩٠١.

على شركه"[١]، واليهود والنصارى مشركون بالإجماع[٢]، وقال برهان الدين البقاعي:"{ومن يشرك}؛ أي: يوقع هذا الفعل القذر جداً، في أي وقت كان من ماض أو حال أو استقبال، {فقد ضل}؛أي: ذهب عن السنن الموصل، {ضلالاً بعيداً}؛ لا تمكن سلامة مرتكبه"[٣].

إن مما بينه الله عن امتناع نجاة المشرك؛ ما ذكره في قوله:﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ الحج: ٣١؛ فهذا خبرٌ منه سبحانه أن الْمُشْرِكَ لَا يُرْجَى لَهُ خَلَاصٌ[٤]، قال قتادة:" هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فِي بُعْدِهِ مِنَ الْهُدَى"[٥]، فالموَّحِد في العلو، فإذا أشرك خرَّ من ذلك العلو إلى الحضيض، قال السعدي:الإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه"[٦]. وقال الشنقطي:"بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره، أي: ومات ولم يتب من ذلك؛ فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه، ولا نجاة معه بحال، لأنه شبهه بالذي خر: أي سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق: أي محل بعيد؛ لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته؛ فإنه لا يرجى له خلاص، ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة؛ لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله، وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه"[٧].

---

(١) تفسير الطبري٩/٢٠٦.

(٢) انظر:تفسير ابن عرفة٢/٦٣٤، واللباب٤/٥٢.

(٣) نظم الدرر٢/٣١٩.

(٤) أضواء البيان١/٢٤٣.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٢/٤٠٦، والطبري في تفسيره١٨/٦٢٠.

(٦) تفسير السعدي ص٥٣٨.

(٧) انظر: أضواء البيان٥/٢٥٦.

وخسارة من أشرك محققة جزماً؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٥؛ قال الطبري:"معنى الكلام: ولقد أوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك، ولتكوننّ من الخاسرين، وإلى الذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرسل من ذلك، مثل الذي أوحي إليك منه، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك"(١)، وقال السعدي:"{من الخاسرين} دينك وآخرتك"(٢)، فهذا خطاب للنبي-ﷺ-، أي:فكيف لو أشرك غيرك! والله تعالى يعلم أن النبي-ﷺ-لا يشرك بالله، ولكنه جاء بالكلام بهذه الطريقة لتنبيه أمته أن من أشرك بالله حبط عمله وإن كان كريما على الله(٣)، ومثل هذه الآية قول الله تعالى عن الأنبياء السابقين: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ٨٨؛ قال الطبري:"يقول: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم بربهم-تعالى ذكره-فعبدوا معه غيره؛{لحبط عنهم}؛ يقول: لبطل؛ فذهبَ عنهم أجرُ أعمالهم التي كانوا يعملون، لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملا"(٤).

وبهذا يتبين أن الشرك موجب لهلاك مقترفه في الدنيا والآخرة، وهو من أكبر موانع النجاة إن لم يكن أكبرها على الإطلاق. فعلى كل من أراد نجاة نفسه أن يعرِف الشرك وأقسامه حتى لا يقع في شيء منه، فإن النجاة مع وجوده مستحيلة، والهلاك معه محقق يقيناً.

---

(١) تفسير الطبري٢١/٣٢٢.

(٢) تفسير السعدي ص٧٢٩.

(٣) انظر: بحر العلوم٣/١٨٤.

(٤) تفسير الطبري١١/٥١٤.

٢ـ الكفر:

الكفر لغة: مصدر كفر يكفر كفراً، والكفر: الجحد والستر والتغطية[١]، وسمي الكافر بالله كافراً؛ لأنه مغطى على قلبه[٢]، أو: لأنه جحد حق الله عليه[٣].

والكفر اصطلاحاً: "عدم الإيمان-باتفاق المسلمين- سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم"[٤]، "وسواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب؛ بل شك وريب، أو إعراض؛ حسداً، أو كبراً، أو إتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن إتباع الرسالة"[٥]. وهو يتداخل مع الشرك[٦].

والكفر-وإن كان بعضه أغلظ من بعض[٧]- إلا أنه كله بأقسامه المتعددة[٨]؛ موجبٌ للهلاك، مانع من النجاة. وسيجد متدبر القرآن بيانه لهذا الأمر في آيات كثيرة، ومن الآيات

---

(١) انظر:جمهرة اللغة؛ مادة(رف ك)، وتهذيب اللغة؛ مادة(ك ف ر)، وتاج العروس؛ مادة(كفر).

(٢) انظر: جمهرة اللغة؛ مادة(ر ف ك).

(٣) انظر: تاج العروس؛ مادة(ك ف ر).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/٨٦.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٣٣٥.

(٦) ذهب ابن حزم إلى أن معنى الشرك والكفر واحد، وبعضهم يرى أن الكفر أعم؛ لأن الشرك كفر، ولا عكس، والحق أنهما متداخلان؛ فكل مشرك كافر لعدم إيمانه بالله، وكل كافر مشرك ولا بد. فإن قيل: إن الكافر لا يعبد أحداً؛ قيل: فإنه يعبد نفسه وهواه، فيكون قد أشرك بنفسه إن لم يشرك بغيره.[انظر: الفصل لابن حزم٣/١٢٤، وجامع المسائل لابن تيمية٦/٢٢٨].

(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"الكفر بعضه أغلظ من بعض؛ فالكافر المكذب أعظم جرما من الكافر غير المكذب؛ فإنه جمع بين ترك الإيمان المأمور به، وبين التكذيب المنهي عنه، ومن كفر وكذب وحارب الله ورسوله والمؤمنين بيده أو لسانه أعظم جرما ممن اقتصر على مجرد الكفر والتكذيب، ومن كفر وقتل وزنى وسرق وصد وحارب كان أعظم جرما"[مجموع الفتاوى ٢٠/٨٧].

(٨) باستقراء القرآن الكريم؛ وجد بعض علماء العقيدة أن أصول أقسام الكفر خمسة: **كفر التكذيب**؛ تكذيب خبر الله أو أحد رسله عليهم الصلاة والسلام. **وكفر الإباء والرفض-مع التصديق**- ككفر إبليس وفرعون واليهود وأبي طالب. **وكفر الشك**؛ وهو عدم الجزم بصدق أو كذب خبر الله أو رسوله-ﷺ-. **وكفر**

التي بينت امتناع نجاة الكافر في الدنيا؛ قول الله تعالى-في قصة قارون-﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ[1] لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ القصص: ٨٢، فنفْي فلاح الكافر؛ يعني امتناع نجاته، ولذا قال بعض المفسرين في معنى قوله:{ويكأنه لا يفلح الكافرون}؛ "أي لا ينجون من عذابه"[2] "لا في الدنيا ولا في الآخرة"[3]، وهذه الآية تتحدث عن عدم فلاح الكافر في الدنيا، وتحقق نزول العذاب به.

وتحدثت آية أخرى عن عدم فلاح الكافر في الآخرة؛ وهي قول الله تعالى:﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧؛ قال ابن كثير:"{إنه لا يفلح الكافرون} أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة"[4]، وقال إسماعيل حقي:"أي : الشأن أنه لا ينجو من كفر من سوء الحساب والعذاب"[5]. ومثل هذه الآية التي بينت امتناع نجاة الكافر في الآخرة؛ قوله تعالى:وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

الإعراض؛ بأن لا يصغي إلى ما جاء عن الرسول-ﷺ-البتة، ولا يهمه، ولا يرفع به رأساً؛ فالشاك ناظرٌ في الأمر، والمعرض ليس ناظراً فيه أصلا. **وكفر النفاق**؛ بأن ينطوي قلبه على تكذيب الرسول-ﷺ-أو بغض شيء مما جاء به.[انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية٢/٧٩، ومدارج السالكين١/ ٣٣٧، والدرر السنية٢/٧١].

(١) الراجح أن (ويكأن) كلمتان: (وي)، و(كأن). فـ(وي) كلمة يؤتى بها للتحسر والتندم، والقوم المذكورون في الآية؛ قد تمنوا أن يكونوا مثل قارون؛ فلما وقع له ما وقع قالوا:(وي)؛ تعبيراً عن ندمهم وأسفهم على ما بدر منهم. و(كأن)؛ معناها: أظن ذلك وأقدره، كما تقول لمغموم: كأن الفرج قد أتاك، أي: أظن ذلك وأقدره. [أنظر: المفردات للراغب ص٨٨٨، ومعاني القرآن للنحاس٥/٢٠٤، ولسان العرب، مادة(ويا)، ومعالم التنزيل٦/٢٢٦].

(٢) روح البيان٦/٣١٧.

(٣) تفسير السعدي ص٦٢٣.

(٤) تفسير ابن كثير٥/٥٠٢.

(٥) روح البيان٦/٨٠.وانظر: البحر المديد٥/٧٠.

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ آل عمران: ١١٦؛ فقوله في الآيتين: {لن تغني}؛ يعني: "لن تُنجيهم"(١)، فمآلهم النار ولابد.

وجاءت آية أخرى نصَّت بوضوح على امتناع نجاة الكافر في الدنيا والآخرة معاً؛ وهي قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ آل عمران: ٥٦؛ قال الطبري: "{وما لهم من ناصرين} يقول: وما لهم من عذاب الله مانعٌ، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة، لأنه العزيز ذُو الانتقام"(٢)، وقال السمرقندي: "يعني: مانع يمنعهم من عذاب الله"(٣)، وقال الآلوسي: "أي أعوان يدفعون عنهم عذاب اللّه"(٤)، ومثلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٠، قال الطبري: "عنى بذلك أنّ أموالهم وأولادهم لن تُنجيهم من عقوبة الله إن أحلَّها بهم عاجلا في الدنيا -على تكذيبهم بالحق بعد تبيُّنهم، واتباعهم المتشابه- فتدفعها عنهم، ولا يغني ذلك عنهم منها شيئًا، وهم في الآخرة {وقودُ النار}؛ يعني بذلك: حَطبُها"(٥).

وقد بينت آيات كريمة أن الكفار لو بذلوا كل شيء للافتداء من العذاب وتحقيق النجاة، فلن يحصل ذلك لهم. يجد قارئ القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ آل عمران: ٩١؛ قال الطبري: {وما لهم من ناصرين}؛ يعني: وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق ينصره، فيستنقذه من الله ومن عذابه كما كانوا ينصرونه في الدنيا

(١) تفسير الطبري٦/ ٢٢٢.
(٢) المرجع السابق٦/٤٦٥.
(٣) بحر العلوم١/٢٤٣.
(٤) روح المعاني٢/١٧٧.
(٥) تفسير الطبري٦/ ٢٢٢.

على من حاول أذاه ومكروهه"[١]، وقال مقاتل:"يعني من مانعين يمنعونهم من العذاب"[٢]، وقال ابن كثير:"أي: وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه"[٣]. ومثل هذه الآية قول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ ﴾ المائدة: ٣٦؛ قال الطبري: يقول جل ثناؤه: لا تطمعوا أيُّها الكفرة في قَبُول الفدية منكم، ولا في خروجكم من النار؛ إن أنتم مُتّم على كفركم الذي أنتم عليه[٤]. قال الزمخشري:"هذا تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه"[٥].

وبهذا يكون القرآن قد أوضح إيضاحاً تاماً أن الكفر مانع قوي من النجاة، فلا يطمع كافرٌ في نجاة أبداً، لا دنيا ولا آخرة.

---

(١) المرجع السابق٦/٥٨٥.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان١/١٨١.

(٣) تفسير ابن كثير٢/٧٣.

(٤) تفسير الطبري١٠/٢٩٣.

(٥) الكشاف١/٦٢٩.

المبحث الثاني: المخالفات الشرعية.

(وأتناول فيه ما يلي):

- تمهيد.

١. الاستكبار في الأرض والاغترار بالقوة.

٢. الإسراف في المعاصي .

٣. ابتغاء الفرج من غير الله.

تمهيد:

سبق بيان المراد بالمخالفات الشرعية[1]، وأنها واسعة تشمل أموراً كثيرة جداً، ولكن ما سيتم تناوله هنا؛ هي المخالفات التي بيّن القرآن أنها كانت موجبة لهلاك أقوامٍ، مانعة من نجاتهم.

إنك ستجد أن المخالفات التي بيّن القرآن أنها أوجبت إهلاك سابقين- أفراداً كانوا أو جماعات- بعضها يصل إلى درجة الكفر والشرك، وبعضها قد لا يصل إلى ذلك، ولكنها مع ذلك كانت سبباً لإهلاكهم؛ لشناعتها وقبحها، وعِظَم الجرأة فيها على انتهاك حدود الله.

(١) راجع هذه الرسالة؛ فصل أنواع النجاة؛ عند الكلام على بيان المخالفات الشرعية؛ ص٢٢٨.

١ - الاستكبار في الأرض والاغترار بالقوة:

الاستكبار قد يصل إلى درجة الكفر بالله تعالى[١]، وقد يكون دون ذلك، ولقد بيّن القرآن الكريم أن الاستكبار في الأرض، والطغيان على الخلق؛ كان الموجب لهلاك أقوام وأمم؛ قال الله تعالى عن عاد-قوم هود عليه السلام-﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت: ١٥؛ قال الزمخشري:"{فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ}؛ أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم؛ وهو القوّة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية"[٢]، {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}؛ قال القرطبي: اغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود-عليه السلام- بالعذاب ، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا[٣]، فهم استكبروا، وطغوا على عباد الله، واغتروا بقوتهم.

إن تلك الصفة الذميمة فيهم، هي التي أوجبت هلاكهم؛ كما ذكر الله ذلك في الآية التي بعدها؛ فقال:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فصلت: ١٦؛{لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا}، قال السمعاني:"أي:عذابا يخزيهم وينكل بهم"[٤]. أما قوله:{ولعذاب الآخرة أخزى} فقال الطبري:"يقول جل ثناؤه: ولعذابنا إياهم في الآخرة أخزى لهم وأشد إهانة وإذلالا"[٥]، وذلك لمقابلة استكبارهم[٦]، قال أبو حيان:"وصف العذاب بالخزي أبلغ من

---

(١) سبق آنفاً بيان أن الإباء والاستكبار؛ أحد أقسام الكفر الأكبر المخرج من الإسلام، وهو كفر إبليس وفرعون.[انظر هذه الرسالة ص٥٥٧؛حاشية(٨)].

(٢) الكشاف٤/١٩٢.

(٣) تفسير القرطبي١٥/٣٤٧.

(٤) تفسير السمعاني٥/٤٥.

(٥) تفسير الطبري٢١/٤٤٨.

(٦) تفسير الخازن٤/٨٦.

وصفهم به"[١]. {وهم لا ينصرون} قال الطبري:"يعني: لا ينصرهم من الله يوم القيامة -إذا عذبهم- ناصر، فينقذهم منه، أو ينتصر لهم"[٢]، وقال ابن كثير:"{وهم لا ينصرون} أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال"[٣]. فكان استكبارهم موجب لهلاكهم، ومانع من نجاتهم.

إن القصة القرآنية السابقة تحدثت عن أمة أهلكت بموجب استكبارها، وتحدث القرآن في آية أخرى عن أسماء أشخاص بأعيانهم-كانوا قادة الشر- أهلكوا بموجب استكبارهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٩؛ قوله:{فاستكبروا}؛ "يعني طغوا فيها، وتعظموا عن الإيمان"[٤]، وقوله:{في الأرض}؛ إشارة إلى ما يوضح قلة عقولهم في استكبارهم؛ وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف يستكبر من في الأرض؟![٥]، {وما كانوا سابقين}؛ أي: فائتين، بل أدركهم أمر الله أي إدراك، فلم يفوتوه، فكانت إبادتهم[٦]، قال ابن عاشور: "السبق:مستعمل مجازا في النجاة والانفلات"[٧]، فالمعنى على ذلك؛ وما كانوا لينجوا مع استكبارهم، فاستكبارهم موجبٌ لهلاكهم، ولا يمكن أن يفلتوا من الهلاك. وهذا ما وقع فعلاً؛ فقد نزل بهم عذاب الله فلم يفلتوا منه، كما أوضح الله ذلك في الآية التي تلي الآية السابقة، حيث قال:﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

---

(١) البحر المحيط٩/٢٩٦.

(٢) تفسير الطبري٢١/٤٤٨.

(٣) تفسير ابن كثير٧/١٦٩.

(٤) بحر العلوم٢/٦٣٣.

(٥) مفاتيح الغيب٢٥/٥٩.

(٦) انظر: الكشاف٣/٤٥٤، ، وتفسير البيضاوي٤/٣١٦، وتفسير أبي السعود٧/٤٠.

(٧) التحرير والتنوير٢٠/١٣٣.

﴿كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٠؛ الأخذ[١] يراد به هنا:الإهلاك والتعذيب[٢]، فقوله:{فكلا أخذنا بذنبه}؛ أي أنه أهلك كل واحدٍ منهم بذنبه لا بذنب غيره[٣]، وقال ابن كثير: المراد أن عقوبة كل واحدٍ كانت تتناسب مع ذنبه[٤]. وقال السعدي: أي: على قدر ذنبه، وبالعقوبة المناسبة له[٥]. والمذكورين في الآية السابقة-وهم قارون وفرعون وهامان- ذكر عقوبتهم في قوله:{ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا}؛ فقوله:{ومنهم من خسفنا به الأرض}؛ يعني:"قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة"[٦]، وقوله:{ومنهم من أغرقنا}؛ يعني:"فرعون ووزيره هامان وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر"[٧]. وكان الاستكبار هو موجب هذا الإهلاك؛ فكان في فرعون من العتو ما لا خفي؛ لما أوتي من السلطة والقوة والرجال، وكان قارون قد أبتلي بالمال والعلم، فكان ذلك سبب إعجابه، فتكبر على موسى وهاورن -عليهما السلام- فكان ذلك سبب هلاكه[٨]، وكلهم كانوا قد استكبروا؛ أي: طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير؛ بأن كانت أفعالهم أفعال من يطلب ذلك، وكان استكبارهم

---

(١) أفاد السمرقندي أن المراد بالأخذ في الأصل: التناول باليد، ثم صار يستعمل في معانٍ أخرى، فيستعمل بمعنى القبول؛ كقوله:{وأخذتم على ذلكم أصري}، ويستعمل بمعنى الإهلاك والتعذيب- كما هو في آية المتن.[انظر: بحر العلوم٢/ ٦٣٣].

(٢) انظر: بحر العلوم٢/٦٣٤.

(٣) انظر: المرجع السابق٢/٦٣٣.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير٦/٢٧٨.

(٥) انظر: تفسير السعدي ص٦٣١.

(٦) تفسير ابن كثير٦/٢٧٨.

(٧) المرجع السابق.

(٨) انظر: نظم الدرر٥/٥٥٩.

بعد مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام- إليهم أكثر مما كانوا قبله، وأشد قبحاً، لأن موسى -عليه السلام- قد جاءهم بالعلم، والمستكبر بعد العلم أشد ممن استكبر جهلاً[١].

وبيّن الله استكبار فرعون وآله في آية أخرى، ثم بيّن أن هذا هو سبب إهلاكهم؛ فقال-في ذكر أنواع النُذُر التي أرسلت إليهم-﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٣، فالآية هنا قد تواردت مع الآية المذكورة سابقاً على بيان استكبارهم، فإنه قال هنا:{فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين}، ثم بيّن ما أوجبه هذا الاستكبار في حقهم؛ فقال:﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٣٦. وذكر الله استكبارهم في آياتٍ أخرى[٢].

كما ذكر الله في آيات أخرى أن الاستكبار كان موجب هلاك ثمود-قوم صالح -عليه السلام- فقال سبحانه-عنهم-:﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ الأعراف: ٧٦ ـ ٧٨؛ والمقصود بالذين استكبروا- على ما قاله الطبري-:"الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح، والإيمان بالله، وبه"[٣]، وقال الخازن:"يعني: الأشراف الذين تعظموا عن الإيمان بصالح"[٤]، فكان من نتائج استكبارهم أن عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، واستعجلوا العذاب؛ تكذيباً

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) أنظر: سورة يونس، آية٧٥، وسورة المؤمنون، آية٤٦، وسورة غافر، آية٤٧.

(٣) تفسير الطبري١٢/٥٤٢.

(٤) تفسير الخازن٢/٢٢١.

به، فكانت نتيجة ذلك الهلاك المدَّمِر. وكذلك ذكر الله الاستكبار عن قوم شعيب-عليه السلام-[١]، وقد أهلكهم الله[٢].

وإذا كانت الآيات السابقة قد بينت إهلاك المستكبرين في الدنيا، وعدم إمكانية نجاتهم، فإن هناك آيات أخرى بينت أن استكبارهم مانع من نجاتهم في الآخرة أيضاً، ومن الآيات التي بينت ذلك؛ قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٠؛ قال الطبري:"يقول: بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على ربكم؛ فتأبون أن تخلصوا له العبادة، وأن تذعنوا لأمره ونهيه. {بغير الحقّ}؛ أي:بغير ما أباح لكم ربكم، وأذن لكم به"[٣]، وقال مقاتل:"يعني تستكبرون عن الإيمان"[٤]، ومن المحتمل أن يكون المراد: تستعلون على أهلها بغير استحقاق، أو تتغلبون على أهلها بغير دين[٥]. ففي هذه الآية بيان واضح أن استكبارهم هو المانع من نجاتهم من النار في الآخرة.

كما ذكر الله اشتراك الضالين والمضلِين في العذاب، وأن موجب عذابهم هو استكبارهم عن الحق، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الصافات: ٣٤ ـ ٣٥؛ قال الطبري:"يتعظَّمون عن قِيل ذلك ويتكبرون"[٦]، وقال السمرقندي:"يستكبرون عنها فلا يقولونها"[٧]، وقال السمعاني: "استكبروا عن الإقرار بالوحدانية"[٨]. وفي نفس المعنى يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى

(١) انظر: سورة الأعراف:٨٨.

(٢) انظر: الأعراف:٨٨، وهود:٩٤، والشعراء:١٨٩.

(٣) تفسير الطبري٢٢/ ١٢٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان٣/ ٢٧٥.

(٥) انظر: النكت والعيون٥/ ٢٨١.

(٦) تفسير الطبري٢١/٣٣.

(٧) بحر العلوم٣/١٣٣.

(٨) تفسير السمعاني٢/١٧٩.

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر: ٦٠؛ قال الطبري:"يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهة لي؛ {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} بمعنى: صاغرين"(١).

وأخبر الله تعالى أن الآخرة لا تكون لمن يريدون العلو في الأرض؛ فقال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص: ٨٣؛ قال ابن جريج: "العلو في الأرض: التعظُّم والتجبر. والفساد: العمل بالمعاصي"(٢)، قال السمعاني:"من التكبر: الاستطالة على الناس واستحقارهم والتهاون بهم"(٣)، وقال علي بن أبي طالب -ﷺ-:"من أحب أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل أخيه؛ دخل في هذه الآية"(٤)، وقال الحسن:"من إرادة العلو: إرادة الشرف والعلو عند ذوي السلطان"(٥)، وقال الزمخشري: من إرادة العلو:"ما ينتحيه بعض الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمّونها من المقاصد الركيكة؛ من التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم(٦) إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم"(٧). إن الإنسان بإرادته العلو في الأرض يدخل في حكم هذه الآية، فلا تكون له الآخرة؛ يعني: لا يكون له نعيم الجنة(٨).

---

(١) تفسير الطبري٢١/٤٠٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/٦٣٧.

(٣) تفسير السمعاني٤/١٦١.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/ ٦٣٨، وابن أبي حاتم في تفسيره٩/٣٠٢٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٩/٣٠٢٣.

(٦) المقصود أن هذا الفقيه تدور حماليقه استعظاماً لوجود فقيه يُقصد غيره. والحماليق: العينان، والحملقة: فتح العينين، يقال:حملق الرجل:إذا فتح عينيه، وحملق إلى الشيء: إذا نظر إليه نظرا شديدا.[انظر:تاج العروس؛ مادة(حملق)]

(٧) الكشاف٢/ ٣٢٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري١٩/ ٦٣٧، وبحر العلوم٢/ ٦٢٢.

واستكبار المستكبرين لن ينجيهم من العذاب يوم القيامة؛ بل سيكون موجباً لعطبهم؛ كما بيّن ذلك أهل الأعراف لأهل النار؛ الذي بينه الله في قوله: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الأعراف: ٤٨؛ قال قتادة:"نزع الله جمعهم، وصار كبرهم في النار"[(١)]. والمراد: الاستكبار عن الإيمان-كما قال مقاتل-[(٢)]، أو الاستكبار على أهل طاعة الله- كما قال عبد الرحمن بن زيد-[(٣)]، وقال بعضهم: المراد الأمرين: استكبارهم عن الحق، وعلى الناس[(٤)].

وبهذه الآيات العظيمة، وغيرها من الآيات القرآنية التي تناولت قصص المستكبرين، وكيف كان استكبارهم موجباً لهلاكهم؛ يتبين أن القرآن قد كشف بوضوح أن الاستكبار مانع من النجاة، موجب للهلاك؛ في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٤٨٩.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان١/٣٩٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٢/٤٦٨.

(٤) انظر: الكشاف٢/١٠٨.

٢ - الإسراف في المعاصي :

المعصية قد يصل بها الإنسان إلى درجة الكفر المخرج من الملة[١]، وقد تكون دون ذلك[٢]. ولقد كشف القرآن بجلاء قصص أقوامٍ أهلكوا، وكان موجب هلاكهم الإسراف في المعاصي والمخالفات.

قال الله تعالى-في أنبيائه ورسله-عليهم الصلاة والسلام-: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الأنبياء:٩؛ قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم"[٣]، وقال الخازن:"يعني: المشركين؛ لأن المشرك مسرف على نفسه"[٤]، وقال البيضاوي:"المسرفين في الكفر والمعاصي"[٥]، وقال الشنقيطي:"الإسراف: مجاوزة الْحَدِّ فِي الْمَعَاصِي كالكفر، ولذلك يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ إطلاق الْمُسْرِفِينَ على الكفار"[٦]. وبهذا تكون الآية قد بينت أن إسرافهم كان هو الموجب لهلاكهم في الدنيا، وهو المانع من نجاتهم، لأن الآية بينت أن غير المسرفين نجوا.

إن الآية السابقة خبرٌ عن أقوام الأنبياء-عليهم السلام- عموماً، فهم قد أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم أنبيائه.

---

(١) المعصية قد تصل إلى درجة الكفر، كتكذيب الله أو أحد رسله-عليهم السلام- فإنها معصية عظيمة تخرج الإنسان من الملة، كما قال الله تعالى-عن فرعون-:{ فَكَذَّبَ وَعَصَى}(النازعات:٢١): يعنى استعصى عن الإيمان[انظر: تفسير مقاتل٣/ ٤٤٧]؛ فبيّن أن تكذيبه معصية، وهو أشد أنواع الكفر.

(٢) المعصية قد تكون دون الكفر؛ كما قال الله تعالى-عن المخالفين أمر الرسول-ﷺ-في غزوة أحد:{وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ}(آل عمران:١٥٢)، فسمى فعلهم معصية، وهو ليس كفراً بالإجماع.

(٣) تفسير الطبري١٨/ ٤١٥.

(٤) تفسير الخازن٣/ ٢٢١. وانظر: اللباب في علوم الكتاب١٣/ ٤٥٥.

(٥) تفسير البيضاوي٤/ ٨٤. وانظر: تفسير أبي السعود٦/ ٥٧. والبحر المديد٤/ ٤٨٦.

(٦) أضواء البيان٤/ ١٣٧.

وهناك بعض الآيات خصصت بالذكر أقواماً معينين؛ وهي الآيات التي ذكرها الله تعالى عن قوم لوط-عليه السلام- قال الله تعالى-ذاكراً قول الملائكة لإبراهيم-: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ ﴾ الذاريات:٣٢-٣٤؛ قال الطبري: {للمسرفين}:"يعني للمتعدّين حدود الله، الكافرين به من قوم لوط-عليه السلام-"(١).

لقد أوضح القرآن أن الإسراف مانع من نجاة صاحبه في الدنيا، وفي القبر، وبعد البعث؛ فهو هالك في الدور الثلاث، قال الله تعالى:﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ طه: ١٢٤، ثم قال سبحانه بعد ذلك:﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ طه: ١٢٧؛ {مَنۡ أَسۡرَفَ}- قال الطبري: "أسرف فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه"(٢). وقال القرطبي: "جاوز الحد في المعصية"(٣)، وقال البيضاوي-في معنى الإسراف هنا-: "الإنهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات"(٤)، وقال السعدي:"{أَسۡرَفَ} بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم، وجاوز ما أذن له"(٥). فمن أسرف في المعاصي؛ فإن الله يجزيه بالمعيشة الضنك وهو الضيق(٦) والشقاء(٧)؛ في البرزخ(٨) -وهو

(١) تفسير الطبري٢٢/٤٢٩.

(٢) المرجع السابق١٨/٣٩٧.

(٣) تفسير القرطبي١١/٢٥٩.

(٤) تفسير البيضاوي٤/ ٧٦.وانظر: فتح القدير٣/ ٥٦٠.

(٥) تفسير السعدي ص ٥١٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٣٩١عن قتادة، ومجاهد.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٣٩٠عن ابن عباس-رضي الله عنهما-.

(٨) أخرجه الطبراني في الأوسط٣/١٠٦حديث٢٦٣٠؛ عن أبي هريرة-رضي الله عنه- مرفوعاً. فقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم قال عن الكافر:"فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فذلك قوله-عز وجل-: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد٣/٧٧: إسناده حسن. وأخرجه الطبري في تفسيره١٨/٣٩٣؛ موقوفاً؛ عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة-رضي الله عنهما-.

الصحيح-[١]، أو في الدنيا[٢] "لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا، والتهالك على ازديادها، والخوف من انتقاصها"[٣]، أو بعد البعث في جهنم[٤]، "وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا-بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل- وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة"[٥]. وقوله سبحانه-في الآية-:{ولعذاب الآخرة أشد}[٦]؛ قال الثعلبي:"الْآخِرَةِ أَشَدُّ ممّا يعذّبهم به في الدنيا والقبر. {وَأَبْقى}: أدوم وأثبت"[٧]. فهذه الآية العظيمة قد بينت امتناع نجاة من أسرف في المعاصي، وأن فعله ذلك موجب لأنواع من البلاء لا نجاة له منها، قال الشنقيطي-في تفسيره الآية السابقة:"ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة؛ أنه يجازي المسرفين ذلك الجزاء المذكور. وقد دل مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعلة إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي"[٨].

وإذا كان الراجح في الآية أنها تحدثت عن امتناع نجاة المسرف في البرزخ، وفي الآخرة؛ فإن هناك آية قد بينت امتناع نجاته في الآخرة -على وجه الخصوص- قال الله تعالى-عن مؤمن آل

---

(١) تفسير القرطبي١١/٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٣٩٢؛ عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) تفسير المراغي١٦/ ١٦١.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٣٩١عن الحسن، وقتادة.

(٥) تفسير السعدي ص ٥١٥.

(٦) النص هنا على عذاب الآخرة، من باب عطف الخاص على العام للتأكيد-عند من فسر الجملة السابقة بعذاب الآخرة-، ومن باب التأسيس-عند من فسر الجملة السابقة بعذاب الدنيا أو بعذاب البرزخ-. والقاعدة الأصولية تقول:(التأسيس أولى من التأكيد)[انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٣٥].

(٧) الكشف والبيان٦/٢٦٦، وانظر: تفسير الخازن٣/ ٢١٧.

(٨) أضواء البيان٤/١٢٩.

فرعون-: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ غافر: ٤٣؛ فقوله: {وأن المسرفين} قال قتادة: يعني المشركين[١]، وقال مجاهد: السفاكين للدماء[٢]، وقال برهان الدين البقاعي: "المجاوزين للحدود"[٣]، وقال الشوكاني: "المستكثرين من معاصي الله"[٤]، وقال السعدي: "هم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به"[٥]. قال الرازي: "والصحيح أنهم من أسرفوا في معصية الله بالكمية والكيفية؛ أما الكمية: فالدوام، وأما الكيفية: فبالعود والإصرار"[٦]، وقال ابن عاشور: الوجه أن الإسراف في الآية يعم أصحاب الجرائم والآثام، وهو تعريض بالذين يخاطبهم؛ إذ هم مسرفون على كل تقدير؛ فهم مسرفون في إفراط كفرهم بالرب الذي دعا إليه موسى، ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم[٧].

إن القرآن يكون بذلك قد أبان أن الإسراف موجب للعطب، مانع من النجاة. وتبيّن من أقوال المفسرين أن الإسراف لا يختص بالكفر والشرك، بل يشمل الانهماك في المعاصي، وعدم المبالاة في ارتكابها؛ وهذا ما خوَّف الله منه المؤمنين، لقد خوَّفهم أن يرتكبوا معاصيه من غير مبالاة، فإن ذلك موجب لهلاكهم ولو كانوا مؤمنين، ويدل على ذلك أن الله خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ المائدة:٩٥، ومع أن الخطاب في الآية للمؤمنين؛ قال سبحانه في نهاية الآية مبيناً عقوبة من عاد إلى اصطياد صيد البر وهو مُحْرِمٌ-: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

---

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره٢١/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره٢١/ ٣٩٢.

(٣) نظم الدرر٦/ ٥١٩.

(٤) فتح القدير٤/ ٧٠٤.

(٥) تفسير السعدي ص ٧٣٨.

(٦) مفاتيح الغيب٢٧/ ٦٣.

(٧) انظر: التحرير والتنوير٢٤/٢٠٦.

ٱنتِقَامٍ ﴾ المائدة: ٩٥، قال الطبري:"معناه: ومن عاد في الإسلام لقتل الصيد بعد نهي الله – تعالى ذكره– عنه، فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة"[١]، وأما قوله:{والله عزيز ذو انتقام}؛ فقال السمرقندي:"{ذو انتقام}من أهل المعصية، ومن آخذ الصيد بعد التحريم"[٢]. قال ابن عطية:"قوله تعالى:{والله عزيز ذو انتقام} تنبيه على صفتين تقتضي خوف من له بصيرة، ومن خاف ازدجر"[٣]، وقال أبو حيان:"في هذه الجملة تذكار بنقم اللّه وتخويف"[٤]. إن انتقام الله من المؤمن إذا أسرف في المعصية قد تصل إلى درجات مهولة موجعة، فقد تصل إلى درجة سلبه للإيمان من ذلك العاصي بسبب معصيته، كما قال تعالى:﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة: ٧٧؛ قال السمرقندي:"جعل عاقبتهم إلى النفاق"[٥]، وقال الخازن:"صيّرهم منافقين"[٦]. قال القرطبي:"قوله:{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً} يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقا من قبل"[٧]. وقد بيّن الله تعالى أن سبب هذه العقوبة هو إخلافهم الله ما وعدوه، وكذبهم؛ قال الشوكاني: الباء في قوله:{بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكسبون} للسببية : أي بسبب إخلافهم، وبسبب تكذيبهم[٨]. فهذه عقوبة قاسية عاقب الله بها فاعل المعصية على معصيته، وليس هناك عقوبة أشد من أن يكون الإنسان مؤمنا، ثم يُعاقَب على معصيته بسلب الإيمان منه. وهذا درس ينبغي استيعابه واستحضاره؛ قال السعدي:"ليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه اللّه بالنفاق كما

---

(١) تفسير الطبري١٠/٥٤.

(٢) بحر العلوم١/٤٤١. وانظر: الكشاف١/٦٧٩.

(٣) المحرر الوجيز٢/٢٨٢. وانظر: الجواهر الحسان١/٤٨٩.

(٤) البحر المحيط٤/٣٦٩.

(٥) بحر العلوم٢/٧٦. وانظر: معالم التنزيل٤/٧٨.

(٦) تفسير الخازن٢/٣٨٨.

(٧) تفسير القرطبي٨/٢١٠.

(٨) انظر:فتح القدير٢/٥٥٩.

عاقب هؤلاء"[١]، فهذه الآية دالة على ذلك، ومثلها قول الله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ المائدة: ٤٩؛ قال السعدي: "{فَإِن تَوَلَّوْا} عن اتباعك واتباع الحق، {فَاعْلَمْ} أن ذلك عقوبة عليهم، وأن الله يريد {أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ}؛ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول-ﷺ-"[٢]. وقال الواحدي: "أي: فإن أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن، فاعلم أن ذلك من أجل أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم"[٣]، وقد مرّ معك في هذه الرسالة بعض جوانب هذا الموضوع بشكل أوسع[٤]. وإذا أوقع الله بقلب عبدٍ هذا البلاء فلا يمكن لأحدٍ أن ينجيه منه، قال الله تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ الأعراف: ١٨٦، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ الرعد: ٣٣، وقال: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٨٨؛ قال الطبري-في معناها-:"أتريدون، أيها المؤمنون، أن تهدوا إلى الإسلام -فتوفقوا للإقرار به والدخول فيه- من أضله الله عنه"،{ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا}؛ "يقول: فلن تجد له طريقًا تهديه فيها إلى إدراك ما خذله الله عنه، ولا منهجًا يصل منه إلى الأمر الذي قد حرمه الوصول إليه" [٥].

وبهذا يتبين أن القرآن قد أوضح ببيان تامٍ أن الإسراف في المعاصي-سواء كانت كفراً يخرج من الإسلام، أو كانت دون ذلك- موجبٌ لانتقام الله من فاعله، فليخف المُقْدِم على المعاصي

---

(١) تفسير السعدي ص٣٤٥

(٢) المرجع السابق ص٢٣٤.

(٣) الوجيز ص٣٢٣

(٤) راجع هذه الرسالة: فصل: أنواع النجاة، في الكلام على: النجاة من زيغ القلب. ص٢٥١.

(٥) تفسير الطبري٨/١٦.

من الاستمرار على غفلته. وقد روي عن النبي-ﷺ-أنه قال:"البر لا يبلى، والإثم لا يُنسى، والديان لا يموت؛ فكن كما شئت، كما تدين تدان"[(١)].

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه١١/١٧٨حديث٢٠٢٦٢؛ مرسلاً. قال ابن حجر:"رجاله ثقات"[فتح الباري١٣/٤٥٨]، وضعفه الألباني[السلسلة الضعيفة٤/٧٨حديث١٥٧٦].

٣- ابتغاء الفرج من غير الله:

الله تعالى هو الذي بيده مفاتيح الفرج، وإذا أراد الله بعبده خيراً ونجاة فلن يستطيع أحد منع ذلك، كما أنه-سبحانه- إذا أراد بعبده شراً وحرماناً فلن يستطيع أحد إنقاذه من ذلك؛ لأنه لا مانع لما أعطى الله، كما أنه لا معطي لما منع، وكان النبي-ﷺ-يقول ذلك دبر كل صلاة(١)، وكان يقوله-أيضاً- إذا رفع رأسه من الركوع(٢)، قال ابن تيمية:"وهذا يقتضي انفراده بالعطاء والمنع؛ فلا يستعان إلا به، ولا يطلب إلا منه"(٣). إن وجود شيء من الْتِفات القلب إلى غير الله في طلب النجاة، سواء كان المُلْتَفَتُ إليه سبباً حقيقياً، أو ليس سبباً أصلا؛ يبعد أمد النجاة، ويزيد من مدة البلاء، وقد تناول المفسرون هذا المعنى عند تفسيرهم قول الله تعالى- في قصة يوسف-:﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ يوسف: ٤٢؛ فقوله:{أذكرني عند ربك}؛ فيه إلْتفات قلبه في طلب النجاة إلى غير الله- عند المفسرين الذين اعتمدوا حديث أبي هريرة -ﷺ- أن النبي-ﷺ-قال:"رَحِمَ اللَّهُ يُوسُفَ؛ لَوْلا كَلِمَتُهُ التي قالها:{أذكرني عند ربك}؛ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ"(٤)، وللحديث شاهد عن ابن عباس-رضي الله عنهما- موقوفاً(١)، وعن

---

(١) قال المغيرة بن شعبة-ﷺ-"سمعت النبي-ﷺ-يقول خلف الصلاة: "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"[أخرجه البخاري٨/ ١٥٧حديث ٦٦١٥؛كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله].

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ-ﷺ-قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ؛ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شيء بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [أخرجه مسلم١/ ٣٤٧حديث ٤٧٧؛كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع].

(٣) مجموع الفتاوى٦/٢٦٥.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه١٤/٨٦حديث٦٢٠٦ ، باب بدء الخلق؛ في موضوع ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث. والحديث قال عنه ابن كثير:"هذا الحديث ضعيف جداً"[انظر:تفسيره٢/٥٨٤]، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم٣٩٨٤، وقال شعيب الأرناؤوط -في تحقيقه لصحيح ابن حبان-:حسن.

الحسن البصري مرسلا[٢]، وعدَّ ابن عباس-رضي الله عنهما- هذه المقولة من يوسف-عليه السلام- عثرة من عثراته[٣]. وهذا لا يقدح في عصمة الأنبياء-عليهم السلام-على طريقة أهل السنة والجماعة؛ لأنه لا يتعلق بالتبليغ، ولم يُقرَّ عليه النبي؛ بل نبه إليه[٤]. وقد رجح الرازي- مع أشعريته- هذا التفسير[٥]؛ لقوة أدلته، وهناك قول آخر اختاره أبو حيان، وهو أن الناسي ليس يوسف-عليه السلام-، بل الساقي الذي قال له يوسف:{أذكرني عند ربك}، نسي ذاك الساقي ذكر ربه- أي سيده-[٦]، وهذا هو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية[٧]،ورجحه ابن حزم، إلا أنه قال:"لو صح أن ضمير {فأنساه} راجع إلى يوسف-عليه السلام-لما كان في ذلك نقص ولا ذنب؛ إذ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك٢/٣٧٧حديث٣٣٢٣؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة يوسف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص٨٠، باب زهد يوسف-عليه السلام-.

(٣) قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:"عثر يوسف ثلاث عثرات: حين هم بها فسجن، وقوله للرجل: {اذكرني عند ربك}؛ فلبث في السجن بضع سنين، وقوله لهم:{إنكم لسارقون}.[أخرجه الحاكم في المستدرك٢/٣٧٧حديث٣٣٢٣؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة يوسف].

(٤) اتفقت الأمة على أن الأنبياء-عليهم السلام- معصومين من الكبائر، ومن الخطأ في التبليغ؛ فلا يقولون: إن الله أمر بكذا؛ وهو لم يأمر، ولا يقولون:إن الله نهى عن هذا؛ وهو لم ينه، ولا يقولون: إن الله يقول كذا؛ وهو لم يقل. ولا يُقَرّون على الصغائر، ولا على الخطأ المتعلق بغير التبليغ، وإن كان يقع ذلك منهم؛ وقد عاتب الله محمداً-صلى الله عليه وسلم- على أنه عبس وتولى أن جاءه الأعمى، ولم يُقِرّه على أخذ الفداء من أسارى بدرٍ. "وأعظم حجج من قال بالعصمة مُطلقاً -ما اعتمده القاضي عياض وغيره- حيث قالوا: نحن مأمورون بالتأسي بهم في الأفعال، وتجويز ذلك يقدح في التأسي؛ فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما أقروا عليه". والذين يقولون بعصمة الأنبياء مُطلقاً يقعون في أعظم مما فروا منه. والقول بأن الأنبياء معصومين عن الكبائر دون الصغائر: هو قول أكثر علماء الإسلام، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يُوافق هذا القول".[انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية٤/٣١٩، ١٥/٢٠،١٤٨/٨٨، ٣٥/١٠١].

(٥) انظر: مفاتيح الغيب١٨/ ١١٦.

(٦) انظر: البحر المحيط٦/ ٢٨٠.

(٧) انظر: مجموع الفتاوى١٥/١١٢.

ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء"[١]. وقد درس القرطبي القولين، ومال إلى الأول[٢]، وتوقف الشوكاني عن الترجيح[٣].

وقول يوسف-عليه السلام-: {أذكرني عند ربك} يعني:"أخبره بمظلمتي، وأني محبوس بغير جُرْم"[٤]؛ ومراده إما الخروج من السجن، أو أن ينقذ الملك نفسه من تبعات الظُلم الذي يقع في ملكه، وهذا الاختلاف في المراد ناتجٌ عن الاختلاف في رجوع ضمير:{فأنساه}، فعلى عود

(١) انظر: الفصل٤/١٠.

(٢) قال-رحمه الله-:"الضمير في "فأنساه" فيه قولان : **أحدهما**: أنه عائد إلى يوسف-عليه السلام-، أي: أنساه الشيطان ذكر الله-عز وجل-؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك - حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك- {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللبث. **ثانيهما**: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده؛ وفيه حذف. وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال: لو أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله؛ لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف : ٤٥] فدل على أن الناسي هو الساقي لا يوسف؛ مع قوله تعالى : {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر : ٤٢] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان؛ وليس له على الأنبياء سلطنة؟ قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه؛ فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم ؛ قال-صلى الله عليه وسلم-:"نسي آدم فنسيت ذريته"، وقال:"إنما أنا بشر أنسى كما تنسون"[انظر: تفسير القرطبي٩/ ١٩٥].

(٣) انظر: فتح القدير٣/ ٤٢، وقال: "يؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: {فلبث في السجن بضع سنين} ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله:{ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة}.

(٤) تفسير الطبري١٦/١٠٩.

الضمير إليه؛ يكون مراده: الخروج، وعلى عود الضمير إلى الساقي؛ يكون مراده: تحميل الملك المسؤولية، لينقذ نفسه من الظلم الذي يقع تحت حُكْمه[١].

لقد بيّن القرآن-على أحد التفسيرين- أن ابتغاء يوسف-عليه السلام- الفرج من غير الله، ترتب عليه عدم نجاته من السجن لسنين عديدة، فقال سبحانه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يوسف: ٤٢؛ بعد قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يوسف: ٤٢ ؛ قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: عوقب يوسف-عليه السلام- لقوله: {أذكرني عند ربك} بطول الحبس[٢]، وقال مجاهد:"لبث في السجن بضع سنين، عقوبةً لقوله: {اذكرني عند ربك}[٣]. وقال مقاتل: لم يَدْعُ يوسف ربه -الذي في السماء- ليخرجه من السجن، واستغاث بعبد مثله، فأقرّه الله في السجن؛ عقوبة حين رجا أن يخرجه غير الله-عز وجل- [٤].

وبهذا يكون القرآن قد بيّن أن ابتغاء الفرج من غير الله، من موانع تحقق النجاة، وكلما كان التفات القلب إلى غير الله أعظم، كلما طال أمد البلاء وامتناع النجاة. كان الحسن إذا ذكر قصة يوسف هذه يَبْكِي وَيَقُولُ:"وَنَحْنُ إِذَا نَزَلَ بِنَا أَمْرٌ فَزِعْنَا إِلَى النَّاسِ"[٥]، وهذا درس ينبغي أن لا يغفل عنه المؤمن؛قال الرازي:"الذي جربته من أول عمري إلى آخره؛ أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله؛ صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله، ولم يرجع إلى أحد من الخلق؛ تم له ذلك المطلوب على أحسن الوجوه. فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين،

---

(١) على القول بعود الضمير إلى يوسف-عليه السلام-؛ يكون قلبه قد مال إلى طلب الفرج من غير الله، وعلى التفسير الآخر؛ لا يكون في قلبه أدنى ميلٍ إلى ذلك.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٧/٢١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٦/١١٣.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان٢/ ١٥٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص٨٠، باب زهد يوسف-عليه السلام-.

فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله – تعالى- وإحسانه"[١].

إن بعض الناس مع زحمة الأحداث، وانشغال البال، وطول البلاء؛ يقع فيما يزيد بلاءه، ويتعلق بالأسباب المادية، أو ربما يتشبث بما ليس سبباً. وقد وردت روايات وأخبار تذكر أن يوسف اعتذر عن كلمته تلك بطول بقائه في البلاء[٢].

إن الإنسان لضعفه قد يذهل عن أن الله بيده مفاتيح الفرج، وأنه على كل شيء قدير، فيسعى للنجاة من بلائه إلى التعلق بالأسباب، أو على الأقل عدم استحضار قدرة الله على إزالة بلائه؛ وهذا قد كشفه القرآن –في قصة لوط عليه السلام- وذلك حينما جاءه قومه مسرعين يريدون فعل الفاحشة بأضيافه؛ فقال ما ذكره الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هود: ٨٠؛ فقوله:{أو آوي إلى ركن شديد}، قد بيّن النبي-ﷺ-أنها غفلة من لوط-عليه السلام- عن الركن الشديد الذي كان يأوي إليه - وهو الله تعالى- فقال ﷺ:"يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"[٣]، وفي بعض الأحاديث جمع النبي-ﷺ- بين كلمتي يوسف- عليه السلام- ولوط-عليه السلام- فقال:"رحم الله يوسف؛ لولا الكلمة التي قالها: {اذكرني عند ربك}، ما لبث في السجن ما لبث. ورحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد؛ وقد قال لقومه:{لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد}"[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب١٨/ ١١٦.

(٢) أخرج الطبري في تفسيره١٦/١١١، عن مالك بن دينار، وابن أبي حاتم في تفسيره٧/٢١٤٩، عن الحسن البصري؛ قالا: لما قال يوسف للساقي:{اذكرني عند ربك}، قيل له: يا يوسف، اتخذت من دوني وكيلا؟ لأطيلن حبسك! فبكى يوسف؛ وقال: يا ربّ، أنسى قلبي كثرة البلوى.

(٣) أخرجه البخاري٤/١٧٩حديث٣٣٧٢؛ كتاب التفسير، باب قوله تعالى:{ونبئهم عن ضيف إبراهيم}. ومسلم١/١٣٣حديث١٥١؛ كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه١٤/٨٦حديث٦٢٠٦، قال شعيب الأرناؤوط -في تحقيقه لصحيح ابن حبان-: حسن.

فتبيّن بهذا البيان النبوي العظيم لهذه الآيات العظيمة، أن ابتغاء الفرج من غير الله مانع من النجاة، أو من تعجيلها؛ بحسب ما يقوم بقلب صاحبه من الالتفات إلى غير الله.

المبحث الثالث: أمراض القلوب.

(وأتناول فيه ما يلي):

١. استحباب العمى على الهدى.

٢. قسوة القلب والإصرار على الطغيان.

٣. نسيان الذكر والدار الآخرة.

١- استحباب العمى على الهدى:

إذا انقلب قلب الإنسان رأى الحق باطلاً، والباطل حقاً، استملح القبيح، واستقبح المليح.

وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ فاطر: ٨؛ قال أبو حيان: "أي فرأى سوء عمله حسنا"(١)، وقال البيضاوي: "أي: أفمن زين له سوء عمله؛ بأن غلب وهمه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه؛ فرأى الباطل حقا، والقبيح حسنا؛ كمن لم يزين له؛ بل وُفِّقَ حتى عرف الحق، واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه"(٢). وأفاد ابن القيم أن العبد يُزين له عمله السيئ؛ عقوبة من الله له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثاره سيء العمل على حسنه، بعد أن يعرِّفه-سبحانه- السيئ من الحسن في البداية، فإذا آثر القبيح، واختاره، وأحبه، ورضيه لنفسه؛ زينه سبحانه له، وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه؛ ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه؛ وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب ذلك النور؛ فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم(٣). وقد ورد تزيين العمل السيئ لأصحابه في القرآن كثيراً(٤).

إن الإنسان إذا خذله الله، فأعمى بصيرته، وزين له سوء عمله فرآه حسناً؛ انتكس فرأى الحق باطلاً، ورأى الباطل حقاً، ورأى الضار نافعاً، ورأى النافع ضاراً؛ فاستحب بسبب ذلك كل قبيح، وكَرِه كل عمل شرعي جميل مليح، فيكون اتصافه بذلك مانعٌ من نجاته، وموجب لهلاكه. وتعظُم المشكلة إذا ابتلي بهذا المجتمع كله، فصار كل المجتمع منقلباً، ويصير من يعمل على إصلاح هذا المجتمع منبوذاً مبعداً، ولقد قص القرآن قصة مجتمع اتصف بذلك، فكان

---

(١) البحر المحيط٩/١٤.

(٢) تفسير البيضاوي٤/ ٤١١.

(٣) انظر: شفاء العليل ص١٠٣.

(٤) انظر: سورة البقرة:٢١٢، وسورة الأنعام:١٠٨و١٢٢و١٣٧، وسورة الأنفال:٤٨، وسورة التوبة:٣٧، وسورة يونس:١٢، وسورة الرعد:٣٣، وسورة النمل:٤، وسورة غافر:٣٧، وسورة محمد:١٤. وليس هذا حصراً.

مصيره الدمار والهلاك، قومٌ استحبوا العمى على الهدى، فأخذهم الله، وكشف القرآن ذلك بآية عظيمة من آياته؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فصلت: ١٧؛ فالله تعالى هنا بيّن أنهم{استحبوا}، ولم يقل:{أحبوا}؛ قال الماوردي(١): "الاستحباب:هو التعرض للمحبة"(٢)، وقال البيضاوي:" المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره"(٣)، وقال إسماعيل حقي:"حقيقة الاستحباب:أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبه"(٤)، وقال ابن عاشور: استحبوا العمى؛ معناها:أحبوا، فالسين والتاء للمبالغة، أي كان العمى محبوبا لهم. والعمى: هنا مستعار للضلال في الرأي، أي اختاروا الضلال بكسبهم. وضمن {استحبوا} معنى: فضلوا، وهيأ لهذا التضمين اقترانه بالسين والتاء للمبالغة؛ لأن المبالغة في المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات؛ فلذلك عدي {استحبوا} بحرف{على}، أي رجحوا(٥). قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: "أرسل الله إليهم الرسل بالهدى؛ فاستحبوا العمى على الهدى"(٦)، وأفاد ابن القيم أن الله هداهم هدى البيان والدلالة، فلم يهتدوا، عرفوا الهدى فأعرضوا عنه؛ فأعماهم عنه بعد أن أراهموه، وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها؛ فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه(٧). فهي إذن سنة إلهية؛ قال ابن تيمية:"من أعرض عن إتباع الحق الذي يعلمه

---

(١) الماوردي(٣٧٠-٤٥٠): علي بن محمد بن حبيب الماوردي. الشافعي.أبو الحسن. مفسر فقيه. تولى القضاء في عدة بلدان، وكان من أقضى القضاة. كتبه تشهد له بالتبحر في الفقه. له مصنفات كثيرة في عدَّة علوم؛ ومنها:(النكت والعيون) في التفسير، و(أمثال القرآن)، و(أدب الدنيا والدين)، و(أعلام النبوة).[انظر:وفيات الأعيان٣/٢٨٢، وسير أعلام النبلاء١٨/٦٥].

(٢) النكت والعيون٣/ ١٢١.

(٣) تفسير البيضاوي٣/٣٣٧. وانظر: الكشفاف٢/ ٥٣٨، وروح المعاني٧/١٧٤، وتفسير أبي السعود٥/٣١.

(٤) روح البيان٨/ ١٨٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير٢٥/ ٣٤.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/ ٤٤٩.

(٧) انظر: شفاء العليل ص٧٩.

تبعا لهواه؛ فإن ذلك يورثه الجهل والضلال؛ حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح"[١]. وقد سبق الكلام عن هذا بأوسع مما هو هنا[٢].

إن سبب ما وقعت فيه ثمود من استحباب العمى على الهدى هو تزيين الباطل لهم؛ قال ابن زيد:"زين لثمود عملها القبيح"[٣]، وقال ابن القيم:" ثمود هداهم الله، فاستحبوا العمى على الهدى، فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى، والتدسية على التزكية"[٤].

لقد كان استحبابهم العمى على الهدى موجبا لهلاكهم، وهذا قد أوضحه الله تعالى في قوله:{فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم...}؛ قال الشنقيطي:"الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: {فَأَخَذَتْهُمْ}:سببية، أَيْ:فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، وبسبب ذلك أخذتهم صاعقة العذاب الْهُونِ"[٥]. وبهذا يكون القرآن قد بيّن أن مانع نجاتهم هو استحبابهم العمى على الهدى، أما الذين لم يستحبوا العمى على الهدى؛ فقد أنجاهم الله، وقد بيّن الله تعالى ذلك في الآية التي بعدها حيث قال:﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾فصلت: ١٨.

إن الآية السابقة قد بينت أن مصير مستحبي الضلالة على الهدى في الدنيا، وهناك آيات أخرى قد بينت أن مصيرهم العطب في الآخرة، وأنه لا نجاة لهم، قال الله تعالى:﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ إبراهيم: ٢ – ٣؛ قال الطبري- في قوله سبحانه:{الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة}؛ أي:"الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرّبهم إلى رضاه من

(١) مجموع الفتاوى١٠/ ١٠.

(٢) راجع: فصل: أنواع النجاة، في الكلام على موضوع النجاة من زيغ القلب؛ ص٢٥١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/ ٤٥٠. وانظر: مدارج السالكين٣/ ٤٩٣.

(٤) مفتاح دار السعادة١/ ٩٣.

(٥) أضواء البيان٧/ ٢١.

الأعمال النافعة في الآخرة"[١]، والكلام هنا فيه؛"كَشْفٌ عن صفات أولئك الكافرين الذين توعدهم اللّه بالعذاب الشديد"[٢].

وبهذا يكون القرآن قد بيّن أن استحباب العمى على الهدى مانع من النجاة في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير الطبري١٦/ ٥١٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن٧/ ١٤٨.

٢- قسوة القلب والإصرار على الطغيان:

قسوة القلب؛ عبارة عن غلظته، وعدم رِقَّتِه. بحيث لا ينفعل للآيات والنذر[١]، فلا يقبل موعظة، ولا يتأثر بالذِكْر، ولا يتلذذ به، ولا يخاف عقوبة، ولا يرحم من يستحق الرحمة[٢].

إن قسوة القلب ولِينه درجات متفاوته، فكلما كان القلب أعظم تأثراً بالذكر، وأعظم تلذذاً بالمناجاة؛ كلما كان أعظم صفاء ورقة ولياناً، وكلما كان بعكس ذلك كان أعظم قسوة[٣].

وقسوة القلب أعظم داء يمكن أن يصيب الإنسان، ولذا فإن الله يُعاقب بها من يخون عهده معه، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ المائدة: ١٣، وقد هدّد الله أصحاب القلوب القاسية بالويل؛ فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الزمر:٢٢، والقلب القاسي أبعد القلوب من الله، كما بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: "لاَ تُكْثِرُوا الكَلاَمَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلاَمِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي"[٤].

إن قسوة قلوب أهل الكتاب، كانت سبباً في عدم تأثرهم بالآيات العظيمة التي كان الله تعالى قد أراهم إياها؛ قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤؛ قال الواحدي: "﴿ثم

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي٢/ ٣٠٥.

(٢) هذا بحسب ما أفاده الغزالي والشوكاني؛ حيث أفاد الشوكاني أن قسوة القلب؛ عبارة عن غلظته، بحيث لا يقبل موعظة، ولا يخاف عقوبة، ولا يرحم من يستحق الرحمة، وأفاد الغزالي أن قسوة القلب؛ هي عدم تلذذه بالذكر، أو عدم تأثره به. وأن لين القلب: صفاؤه؛ بحيث يتهيأ لإدراك لذة المثابرة، والتأثر بالذكر.[انظر: إحياء علوم الدين٣/٨٥، وتحفة الذاكرين ص ٤١٤].

(٣) انظر: إحياء علوم الدين٣/٨٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه٤/٦٠٧ حديث٢٤١١؛ كتاب الزهد عن رسول الله-ﷺ-، باب من باب ما جاء في حفظ اللسان. قال الترمذي:" هذا حديث حسن غريب".

قست قلوبكم} يا معشر اليهود، أي: اشتدت وصلبت، {من بعد ذلك} من بعد هذه الآيات التي تقدمت[١]: من المسخ، ورفع الجبل فوقهم، وانبجاس الماء من الحجر، وإحياء الميت بضرب عضو-وهذه الآيات مما يصدقون بها-، {فهي كالحجارة} في القسوة وعدم المنفعة؛ بل{أشد قسوة} وإنما عنى بهذه القسوة تركهم الإيمان بمحمد-ﷺ-بعد ما عرفوا صدقه، وقدرة الله تعالى على عقابهم بتكذيبهم إياه"[٢]، فالله قدَّر عليهم تكذيب محمد-ﷺ- جزاء قسوة قلوبهم، ولو كانت قلوبهم لينة تتأثر بالمواعظ والأذكار، لأنجاهم من ذلك، ولكن منع من إنجاءهم قسوة قلوبهم.

وإذا كان أهل الكتاب قد منع من نجاتهم؛ قسوة قلوبهم، فإنه ينبغي للمؤمنين أن يستفيدوا من هذا الدرس العظيم؛ فيحذروا من قسوة القلب، وهذا ما أمرهم الله به فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ الحديد: ١٦؛ حذَّر الله المؤمنين أن يكونوا كأهل الكتاب؛ يستطيلوا الأمد فتقسوا قلوبهم، فإن قسوة قلوب أهل الكتاب قد أوجبت عطب أهل الكتاب بكفرهم بمحمد-ﷺ- ، قال السمرقندي-في قوله سبحانه:{ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم}:"يعني ولا تكونوا في القسوة كاليهود والنصارى من قبل خروج النبي-ﷺ- {فطال عليهم الأمد}؛ يعني الأجل[٣]، ويقال: خروج النبي-ﷺ- [٤]؛ {فقست قلوبهم} يعني: جفت ويبست قلوبهم عن الإيمان؛ فلم يؤمن بالقرآن إلا قليل منهم"[٥]، فقسوة قلوبهم هي التي سببت كفرهم بمحمدٍ-ﷺ-، ولولا قسوة

---

(١) يعني في الآيات التي قبل هذه الآية.

(٢) الوجيز ص١١٣.

(٣) يعني: ما بينهم وبين موسى-عليه السلام- فمع تطاول الزمن عليهم قست قلوبهم.[انظر:تفسير الطبري٢٣/١٨٩].

(٤) يعني: أن الله قد أخبرهم -فيما أنزل عليهم-: أنه سيبعث محمداً ﷺ، فطال عليهم أمد عدم بعثته، فكان ذلك سبب قسوة قلوبهم[انظر: تفسير مقاتل بن سليمان٣/٣٢٣].

(٥) بحر العلوم٣/٣٨٥.

قلوبهم لنجوا من هذا الكفر. وعلى هذا فالآية فيها نهي المؤمنين"عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب، وذلك أنّ بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا للّه ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره"(١)، ولو كانت قلوبهم لينة لنجوا من ذلك كله-بإذن الله-.

إن قسوة القلب ينتج عنها: الإصرار على الطغيان، فيكون هذا موجب لاستمرار العذاب على أصنافٍ من الكفار، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ المؤمنون: ٧٥؛ فبيّن سبحانه أن مانع كشف الضر عنهم، هو ما يعلمه سبحانه عنهم من استمرارهم على غوايتهم لو كشف ما بهم؛ قال الطبري:"يقول تعالى: ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب وضرّ الجوع والهزال؛ {لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ} يعني: في عتوّهم وجرأتهم على ربهم"(٢)، وقال السمعاني:"{لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ} أي: مضوا في طغيانهم يعمهون، ولم ينزعوا عنه"(٣)، وقال البغوي:"تمادوا في طغيانهم"(٤). قال سيد قطب:هذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس، القاسية قلوبهم، الغافلين عن الله، المكذبين بالآخرة. والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله، والشعور بأنه الملجأ والملاذ. والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان، واستيقظ وتذكر، وكانت هذه الحساسية هي الحارس الواقي من الغفلة والزلل(٥).

إن موجب إهلاك بعض الأمم السابقة، قسوة القلوب، ولو لانت قلوبهم لنجوا. كما بيَّن الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ

(١) الكشاف٤/٤٧٧.

(٢) تفسير الطبري١٩/ ٥٩.

(٣) تفسير السمعاني٣/٤٨٥.

(٤) معالم التنزيل٥/٤٢٥.

(٥) انظر: في ظلال القرآن٤/ ٢٤٧٦.

شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنعام: ٤٣ – ٤٤؛ قال الطبري: تأويل الكلام: فهلا إذ جاء هؤلاء الأمم المكذبة رسلها{تضرعوا} فاستكانوا لربهم وخضعوا لطاعته، فيصرف الله عنهم بأسه، وهو عذابه، {ولكن قست قلوبهم}؛ يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه[١]، وأوضح البيضاوي أن في الآية"بيان للصارف لهم عن التضرع؛ وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم"[٢]، فالتضرع يكشف البلاء، ولكنهم تركوه لقسوة قلوبهم فأوجب ذلك لهم الشقاء[٣]. فالتضرع الذي ينشأ عن لين القلب[٤] موجب للنجاة، ولكن صدهم عنه قسوة قلوبهم، فامتنعت نجاتهم.

(١) انظر: تفسير الطبري١١/٣٥٧.

(٢) تفسير البيضاوي٢/٤٠٩.

(٣) انظر: نظم الدرر٢/٦٣٦. وتفسير المراغي٧/١٢٤

(٤) انظر: التحرير والتنوير٦/٩٩.

٣- نسيان الذكر والدار الآخرة:

النسيان: عدم ضبط الإنسان ما اسْتُودِع[١]، وهو ثلاثة أنواع: نوع يكون من ضعف القلب[٢]، ونوع يكون من الغفلة[٣]، ونوع يكون عن تعمدٍ: بعدم الاهتمام بالشيء، وقلة المبالاة به[٤]، كما أن الحفظ يطلق على تعاهد الشيء وتفقده ورعايته[٥]، والحفظ ضد النسيان[٦]. ويُطلق النسيان على الترك[٧]، وهو استعارة؛ "لما في النسيان من معنى الترك"[٨].

والنسيان من حيث الحُكم الشرعي؛ قسمان: قسمٌ يعاقب عليه الإنسان، وهو ما كان منشؤه عدم المبالاة وقلة الاهتمام. ومنه نسيان القرآن؛ فلا يُعاب نسيانه على من هو دائب في تلاوته، حريص على حفظه إذا غلبه النسيان، ويعاب من ليس كذلك[٩]، قال الراغب الأصفهاني:"وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به؛ فهو ما كان أصله عن تعمد"[١٠].

---

(١) انظر:المفردات للراغب الأصفهاني؛ مادة(نسي).

(٢) أي: فلا يضبط حفظ المعلومة أصلاً.

(٣) بحيث يكون حافظاً للمعلومة، ولكنه فَعَل فِعْلَ من يجهلها لغفلته عنها. ومثالها: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية – وهو يبين غلبة الجهل في العصور المتأخرة من الأمة المحمدية– "نعلم بالضرورة أن النبي–ﷺ– لم يشرع لأمته أن تدعو أحدا من الأموات؛ لا الأنبياء، ولا الصالحين، ولا غيرهم... لكن غلب الجهل، وقلَّ العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن، وقال: هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض الأكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بينته لنا.[انظر: الرد على البكري٢/٧٣١].

(٤) انظر:المفردات للراغب الأصفهاني؛ مادة(نسي). والتوقيف على مهمات التعاريف١/٦٩٨.

(٥) كقوله تعالى:{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} (البقرة:٢٣٨). [المفردات للراغب؛ مادة(حفظ)، وانظر: تفسير الطبري٥/١٦٧].

(٦) انظر: المفردات؛ مادة(حفظ).

(٧) انظر: تأويل مشكل القرآن ص٢٧١.

(٨) انظر: الفائق للزمخشري١/٦٨.

(٩) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد، مادة(نسي).

(١٠) انظر:المفردات للراغب؛ مادة(نسي).

إن من ما يوجب هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة، ويمنع من نجاته؛ نسيانه الذكر والدار الآخرة؛ بقِلَّة الاهتمام، وعدم المبالاة بهما، وترك القيام بحقهما؛ كما بيّن الله ذلك في آياتٍ متعددة من كتابة، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ الفرقان: ١١ – ١٤...إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ۚ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ الفرقان: ١٨؛ فبيّن أن موجب ما هم فيه من العذاب والبلاء نسيانهم الذكر، وذلك في قول الملائكة الذي ذكره الله عنهم بقوله:{حتى نسوا الذكر}؛ قال السمرقندي:"يعني تركوا التوحيد، والإيمان بالقرآن"[١]، وقال الثعلبي:"تركوا القرآن فلم يعملوا بما فيه"[٢]، وقال السمعاني:"نسوا ذكرك وغفلوا عنك"[٣]، وأفاد السعدي أنهم اشتغلوا بلذات الدنيا، وأكبوا على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم[٤]، وقال ابن عاشور:"النسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة؛ لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة"[٥]. فقول الملائكة هنا:{ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر}؛ ذكرٌ منهم للسبب الذي أوجب ضلال المشركين[٦]، فهم بهذا بيّنوا أن نسيانهم الذكر هو المانع من هدايتهم، وبالتالي نجاتهم من الضلالة والشرك.

وقوله:{ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا }؛ قال النحاس:"يقال لِمَا هلك أو فسد أو كسد: بائر، ومنه: بارت السوق، وبارت الأيم"[٧]، فالبور:"الذي ليس فيه من الخير شيء"[٨].

---

(١) بحر العلوم٢/٥٣٢. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان٢/٤٣٣، وتفسير الخازن٣/٣١١.

(٢) الكشف والبيان٧/١٢٧.

(٣) تفسير السمعاني٤/١٢.

(٤) انظر: تفسير السعدي ص٥٨٠

(٥) التحرير والتنوير١٩/٢٨.

(٦) انظر: تفسير السعدي ص٥٨٠.

(٧) معاني القرآن٥/١٤.

(٨) تفسير الطبري١٩/٢٤٨.

إن نسيان الذكر والدار الآخرة؛ موجب للهلاك في الدنيا والآخرة، ومتدبر القرآن سيجد فيه قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، فقد كان سبب ما نزل بهم نسيانهم الذكر، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٥ ـ ١٦٦؛ فقوله: {فلما نسوا ما ذكروا به}؛ قال ابن عباس:"يعني: تركوا ما ذكروا به"(١)، وقال الطبري:"فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه، وضيَّعت ما وَعظتْها الطائفة الواعظة"(٢)، وقال مقاتل:"يعني: فلما تركوا ما وعظوا به من أمر الحيتان"(٣)، وقال الزمخشري:"فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه"(٤). {أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيس...}؛ فهذه نتيجة نسيانهم الاتعاظ بما ذُكِّروا به، حيث إن الآية أخرجت إنجاء الناجين وإهلاك الناسين مخرج الجواب الذي حقه الترتب على الشرط، فنسيان المعتدين استتبعه إهلاكهم، وتذكير المذكرين استتبعه نجاتهم(٥)، فهذا يبيّن أن نسيان الذكر مانع من نجاة أصحابه من عذاب الله إذا نزل.

إن نسيان الذِكْر يفتح على الإنسان أبواباً تهيئ انزلاقه —من حيث لا يشعر— إلى ما فيه حتفه، كما أوضح الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤؛ فهم نسوا ما ذُكِّروا به: أي تركوه(٦)، وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم(٧) فلم يبالوا به؛ بل أعرضوا عنه إعراضاً

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٤/١٢٩٠.

(٢) تفسير الطبري١٣/١٩٩.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان١/٤٢١.

(٤) الكشاف٢/١٧١.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود٣/٢٨٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره١١/٣٥٧، وابن أبي حاتم في تفسيره٤/١٢٩٠؛ كلاهما عن ابن عباس.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير٣/٢٥٦.

صيَّره بمنزلة ما قد نسي[١]. وبسبب موقفهم هذا لم ينفع فيهم الذكْر، ولم يتعظوا به، ولم يزجرهم[٢]. فكانت عقوبتهم أن جاءتهم النقمة بصورة النعمة؛ استدراج من الله تعالى وإملاء لهم، ومكراً بهم؛عياذا بالله من مكره[٣]. فأدى بهم نسيان الذكر إلى انفتاح الدنيا عليهم، كما أوضح الله ذلك في قوله-سبحانه-في الآية:{فتحنا عليهم أبواب كل شيء}؛ فتح الله عليهم أبواب كل شيء كان أغلق بابه عليهم[٤]، قال مجاهد:"رخاء الدنيا ويُسْرها"[٥]، وقال قتادة:"يعني الرخاء وسعة الرزق"[٦]، وهو فتح؛ ولكنه"فتح استدراج ومكر"[٧]. وتبيّن أنه فتح استدراج ومكر، بما حصل لهم بعد ذلك، فقد بيّن الله سبحانه أنهم{فرحوا بما أتوا}، أي: "أعْجِبوا بما هم فيه"[٨]، من النعمة والصحة وتيسر الأمور، وظنوا أنه لا يبيد[٩]، فجاءتهم القاصمة التي ذكرها الله بقوله:{أخذناهم بغتة}؛ يعني: فجاءة[١٠]، قال الطبري:"أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارُّون لا يشعرون أن ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ"[١١]، وقال القرطبي: أي: استأصلناهم وسطونا بهم، على غرة ومن غير تقدم أمارة[١٢]. قال قتادة:"بَغَتَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللهِ، مَا أَخَذَ اللهُ قَوْمًا قَطُّ الا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغِرَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللهِ، فَإِنَّهُ لا يَغْتَرُّ بِاللهِ

(١) انظر: تفسير القرطبي٦/٤٢٦. وتفسير الخازن٢/١١٢.

(٢) انظر: الكشاف٢/٢٣.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير٣/٢٥٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري١١/٣٥٩.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره١١/٣٥٨، وابن أبي حاتم في تفسيره٤/١٢٩٠.

(٦) المرجعين السابقين.

(٧) تفسير السمعاني٢/١٠٤، وتفسير البغوي٣/١٤٣.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره١١/٣٦٠، عن ابن جريج.

(٩) تفسير القرطبي٦/٤٢٦.

(١٠) انظر: كتاب العين؛ مادة(بغت)، وتهذيب اللغة؛ مادة(غتب)، والمفردات للراغب؛ مادة(بغت)، وتاج العروس؛ مادة(بغت).

(١١) تفسير الطبري١١/٣٦٠.

(١٢) انظر: تفسير القرطبي٦/٤٢٦.

إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ"[١]. فكانت هذه النتيجة هي النهاية المأساوية بالنسبة لهم على نسيانهم الذكر، وهي وإن كانت نهاية بؤس لهم، فهي نهاية خيرٍ للأرض ومن عليها؛ كما قال سبحانه- بعدها-:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٤٥، قال البيضاوي:"{فقطع دابر القوم الذين ظلموا}؛ أي: آخرهم، بحيث لم يبق منهم أحد.{والحمد لله رب العالمين} على إهلاكهم؛ فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها"[٢].

إن هؤلاء الناسين للذِكْر قد فتح عليهم ما يشتهون أولاً، ثم استؤصلوا وقطعوا آخراً، فالآية عظيمة يتذكرها العقلاء، قال"حماد بن زيد[٣]: كان رجل يقول: رَحم الله رجلا تلا هذه الآية، ثم فكر فيها ماذا أريد بها"[٤]، وليتذكر من أعرض عن ذكر الله فوُسع له في الدنيا هذه الآية، وليعط الدرس الذي بينته حقه من الاهتمام والعناية، فهو درس عظيم، قال النبي-ﷺ-: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ-:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}"[٥]، وقال الحسن البصري:"من وسع اللّه عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له، ومن قتّر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له، ثم قرأ الآية وقال: مكر بالقوم وربّ الكعبة. أعطوا حاجتهم ثم أخذوا"[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم٤/١٢٩١.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي٢/٤٠٩.

(٣) حماد بن زيد(٩٨ - ١٧٩ هـ) بن درهم الازدي، مولاهم، البصري. أبو إسماعيل. أصله من سبي سجستان: شيخ العراق في عصره. علامةٌ، ورعٌ، قارئٌ، حافظٌ، ثبتٌ، مجودٌ، من أعلم الناس بالسنة، يحفظ كل أحاديثه. مولده ووفاته في البصرة. وكان ضريرا؛ طرأ عليه العمى.[انظر:صفة الصفوة٣/٣٦٤، وسير أعلام النبلاء٧/ ٤٥٦، وشذرات الذهب١/٢٩٢، والأعلام٢/ ٢٧١].

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١١/٣٥٩.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسند عقبة بن عامر من مسنده٤/١٤٥حديث١٧٣٤٩. والبيهقي في الآداب ص٣٣٠، باب من نسي ما ذكر به فاستدرج. قال الألباني:صحيح،[صحيح الجامع حديث٥٦١].

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٤/ ١٢٩١.

إن ما سبق ذكره –في الآية السابقة– من العذاب كان في الدنيا، فنزل بهم بطش الله واستؤصلوا، فكان هذا حالهم في الدنيا، وحالهم في الآخرة أشد، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ طه: ١٢٤ – ١٢٦؛ قال ابن كثير:" أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينساك، فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن؛ مع فهم معناه، والقيام بمقتضاه؛ فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعدا عليه من جهة أخرى[١].

إذا كان ما سبق ناتج عن نسيان الذِكْر، فإن نسيان الآخرة يؤدي إلى نفس النتيجة، وقد جاءت الآيات القرآنية محذِّرة من نسيان الآخرة والغفلة عنها، ولقد توعد الله تعالى من نسي تلك الدار بالعذاب الشديد؛ فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ص: ٢٦؛ الباء: سببية؛ أي: لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم[٢]. ونسيانهم؛ يعني: تركهم العمل ليوم القيامة[٣]، أو غفلتهم عن ذلك اليوم، فلم يكن منهم على بال[٤]؛ فالسبب الأول لحصول ذلك الضلال الذي ترتب عليه التهديد بالعذاب الشديد؛ هو نسيان يوم الحساب؛ لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد، ولما صار مستغرقاً في اللذات الفاسدة[٥]، وتذكر يوم القيامة يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٥/ ٣٢٤.

(٢) انظر:الكشاف٤/٨٩. وتفسير البيضاوي٥/٤٤. وفتح القدير٤/٦١٠. والتحرير والتنوير٢٣/١٤٣.

(٣) بحر العلوم٣/ ١٥٨. وانظر: الوجيز للواحدي ص ٩٢٢،

(٤) تفسير السمعاني٤/ ٤٣٧.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب٢٢/ ١٧٥.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي٥/٤٤. وتفسير السعدي ص٧١١.

إن الوعيد المذكور في الآية السابقة سيصبح في الآخرة حقيقة واقعة، وسيعيشون ذلك العذاب الشديد الذي توعدهم الله به، كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ الأعراف: ٥١؛ الكاف؛ في قوله: {كما نسوا}"نعت لمصدر محذوف، وما مصدرية؛ أي: ننساهم نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا"[(١)]. قال الطبري:"أي: ففي هذا اليوم -وذلك يوم القيامة- {ننساهم}، يقول: نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له"[(٢)]، وقال الزمخشري: {نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا}، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به[(٣)]، قال السعدي:" فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء"[(٤)]، وهذا المعنى الذي ذكره السعدي معنى للآية، قد ذكره الله قِسْماً من قسمي حجاج بيته الحرام، فقد ذكر الله أن الحجاج في دعواتهم قسمان: قِسْمٌ من الناس يهمهم صلاح حالهم في دنياهم وأخراهم؛ وهؤلاء وعدهم الله بأن لهم نصيب مما كسبوا. وقسم لم يهمه إلا صلاح دنياه؛ قد نسي الآخرة وأسقطها من حساباته، ولم يُعِرْها اهتماماً في دعواته؛ فبيّن الله أن هذا ليس له في الآخرة من خلاق؛ ذكر الله قسمي الناس في دعواتهم في الحج، وجزاء كل قسم؛ في قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٠-٢٠٢؛ قال مجاهد في قوله: {ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة}؛ يقولون:"نَصرًا ورزقًا، ولا يسألون لآخرتهم شيئًا"[(٥)]، وقال

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود٣/ ٢٣١، وفتح القدير٢/ ٣٠٦، وروح المعاني٤/ ٣٦٦.

(٢) تفسير الطبري١٢/ ٤٧٥. وانظر: بحر العلوم١/٥٣٥، والوجيز للواحدي ص٣٩٦، وتفسير الخازن٢/٢٠٥.

(٣) انظر: الكشاف٢/ ١٠٩.

(٤) تفسير السعدي ص٢٩٠.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره٤/٢٠٢.

قتادة:"هذا عبد نوى الدنيا؛ لها انفق، ولها شخص، ولها عمل، ولها نَصَبَ، فيها همُّه ونيته وسَدَمَه[١] وطِلْبَته"[٢]، وقال الطبري:"ولا تكونوا كمن اشترى الحياةَ الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظَّ لهم في ثواب الله، ولا نصيبَ لهم في جناته وكريم ما أعدَّ لأوليائه"[٣]. قال الرازي:"بين الله تعالى أن الذين يدعون الله فريقان: أحدهما: من يكون دعاؤهم مقصوراً على طلب الدنيا. والثاني: الذين يجمعون في الدعاء بين طلب الدنيا وطلب الآخرة. وقد كان في التقسيم قسم ثالث: وهو من يكون دعاؤه مقصوراً على طلب الآخرة. واختلفوا في أن هذا القسم هل هو مشروع؟ أو لا؟ والأكثرون على أنه غير مشروع"[٤]. والشاهد من الآية هنا: أن الله توعد من أسقط الآخرة من حساباته، ولم يجعلها من اهتماماته؛ ولو عمل الصالحات! فهذا حاج، والحج عملٌ صالح. مما يحتم على المسلم أن يفتش عن نفسه لئلا يكون من هذا القسم. فقد توعد الله هؤلاء بأن ليس لهم في الآخرة من نصيب.

وفي آية أخرى توعد الله من نسي الآخرة؛ بأن أسقطها من حساباته، فصارت الدنيا هي همه، ومن أجْلِها سكونه وقلقه، وفيها يغضب ويرضى؛ فقال سبحانه:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾يونس: ٧ - ٨ ؛ قال الطبري:"العرب تقول: "فلان لا يرجو فلانًا": إذا كان لا يخافه"[٥]، فهو لا يخاف لقاء الله، ولا يعمل له، وقال الزمخشري:"{لا يرجون لقاءنا} لا يتوقعونه أصلا، ولا يخطرونه ببالهم؛ لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق"[٦]، فالدنيا آخر همهم، ومنتهى غرضهم، فهم{اطمئنوا بها}؛

---

(١) سدمه: همه وحزنه.[انظر: غريب الحديث لإبراهيم الحربي؛ باب(سدم)٢/٥١٦].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٢/٣٥٧.

(٣) تفسير الطبري٤/٢٠١.

(٤) مفاتيح الغيب٥/ ١٥٩.

(٥) تفسير الطبري١٥/٢٦.

(٦) الكشاف٢/٣٣٠.

والطمأنينة بالشيء: هي زوال التحرك إلى غيره[١]، فهم لذلك"مُتَنَافِسُونَ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا، رَاضُونَ بِهَا عِوَضًا مِنَ الآخِرَةِ، مُطْمَئِنِّيْنَ إِلَيْهَا سَاكِنِينَ"[٢]، قال قتادة:"إذا أتيت رايته صاحب دنيا؛ لها يفرح، ولها يحزن، ولها يرضى، ولها يسخط"[٣]، والآخرة منسية. قال السعدي:"صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون"[٤]. فاهتمامهم بالدنيا وعملهم لها قد أنساهم الآخرة وعِظَمَ خطرها، فكان جزاؤهم ما ذكره الله بقوله:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يونس: ٨.

وبهذا يكون القرآن قد بيّن أن نسيان الذكر والدار الآخرة أحد الموانع العظيمة للنجاة.

(١) انظر: المحرر الوجيز٣/١٢١، والبحر المحيط٦/١٦.

(٢) تفسير الطبري١٥/٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٦/ ١٩٢٨.و أخرجه-بأكثر ألفاظه-الطبري في تفسيره١٥/٢٧.

(٤) تفسير السعدي ص ٣٥٨.